ويعقبه كتاباً آخر يقسم الى عين تلك الأبواب والفصول تذكر فيها السنن بحيث يقال ان هذه الأحكام ينبغي رعايتها في اكثر الأوقات . ثم كتاباً ثالثاً مثل الأولين تذكر فيه سنن الزوائد بحيث يقال ان هذه الأحكام رعايتها اولى من تركها . وعلى هذا النسق يوضع كتاب للمنهيات يقسم الى ابواب وفصول تعد فيها المكفرات والكبائر وكذا الصغائر والمكروهات ومثل ذلك تقسم كتب المعاملات على طبقات من الأحكام الإجماعية او الاجتهادية او الاستحسانية .

فمثل هذا الترتيب يسهل على كل من العامة ان يعرف ماهو مكلف به في دينه فيعمل به على حسب مراتبه وامكانه وبهذه الصورة تظهر سماحة الدين الحنيف ويصير المسلم مطمئن القلب مثله كمثل تاجر له دفاتر وقيود وحسابات وموازنات منتظمة فيعيش مطمئن الفكر وكم بين هذا التاجر وبين تاجر آخر حساباته في اوراق منتثرة ومعاملاته مشتتة متزاحمة في فكره لايعرف ماله وما عليه فيعيش عمره مرتبك البال مضطرب الحال «مرعي»

الرؤيا المنامية

الثمرة السابعة صورة مبرية أراسم (*)

رؤيا منام ارجو ان تحققها لنا الايام

رأيتني متطايحاً جواداً أسبح في بلاد مجهولة لاأدري ان كانت من الدنيا القديمة أو الجديدة ولكني بحسب مايدالي من ظواهرها أرى انها لابد أن تكون واقعة على تخوم بلاد الألدورادو (١) او الاوتوبيا (٢)

(*) معرب من باب تربية اليافع من كتاب اميل القرن التاسع عشر

[١] الالدورادو كلة اسبانية معناها بلاد الذهب وتطلق على بلاد يزعم الناس ان ضابطاً من مدينة بيزارا اكتشفها في أمريكا الجنوبية وانه كان يوجد بها من الذهب وخيرات الارض شيء كثير ثم أطلقت هذه الكلمة على بلاد الرخاء والنعيم [٢] الاوتوبيا كلة يونانية تطلق على بلاد وهمية جرت أمورها على أحسن مايتخيل من النظام وصفها كاتب اسمه توماس موريس في كتاب له

بصرت فى طريقي بحظائر مسيجة بأسيجة خضراء فيها قطعان من البقر والغنم وغيرها من الحيوانات المجترة التى لاتوجد قط في مراعينا تسوم آمنة لاكلب يحرسها ولا راعي يراقبها ولاحظت في انتظام طرق الري فى هذه البلاد وحسن توزيع الماء بين جهاتها على نحو يثير الاستحسان ويدعو الى الاعجاب انه كان من مزاياه امتلاء جوّ ريفها بالنسيم البارد المنعش على مافيه من حرارة النهار وشاهدت سلاسل من الهضات مكللة بالاشجار كأنها فى تتابعها واتصال بعضها ببعض تخط الرياح والسحاب طريقهما.ضرب الغنى سرادقه حول قرى هذا الريف وظهرت على أهله آثار النعمة والاغتباط نساؤه حسان وولدانه أسوياء أصحاء الابدان يبشرون حكومتهم بأنهم سيكونون نسلا قويا باسلا

ثم رأيت حواضر هذا القطر فلم أكن لرؤيتها اقل مني دهشا لرؤية قراه وعما أرشدت اليه فى احداها بنآن كانا أقيما فى عصر يسميه أهلها الآن عصر المدنية احدهما سجن والثاني مأوى للمساكين وقد أصبحا من أهلهما خلاء لعدم اللصوص والبؤساء ومع انهما لم تبق لوجودهما فائدة حفظهما القائمون على شؤن المدينة ليكون للاجانب فيهما ذكرى لتاريخهم .

حدد فى هذه البلاد مالناس وما عليهم من الحقوق والفروض وما للحكومة وما عليها من ذلك وامتاز بعضه عن بعض امتيازاً بيناً ولهذا تجد الرعايا لايولون حكامهم من شؤنهم الا ماليس من مصلحتهم ان يتولوه بأنفسهم وحقيقة الامر أن القوانين فيها على قلتها جداً وصدورها عن رأي من اختارتهم الأمة نواباً عنها لاسبيل لها الاعلى ماكان من الاعمال متعلقاً بالحكومة ولما كان الناس جميعاً هم الذين قدستوا لأنفسهم هذه القوانين لحماية كل منهم كانت مخالفتها وعدم الرضوخ لاحكامها حمقا وسخفا على انهم يؤملون تعديلها والتقليل من سلطانها بترقية العلوم وبث اضواء العرفان

رأيتهم هو حاكمهم المطاع أمره النافذ قوله ولم يعهد أن ملكا من الملوك المتنعين فى صياصيهم المتحرزين بحصونهم كان له من المعاقل والمتاريس مايعادل ماحيط به ذلك الحاكم من ضروب الكفالة وأنواع الضمان المؤيدة له القائمة على إعزازه فالقوم أحرار يتفكرون فى كل مايكتبون ويكتبون كل مايتفكرون وانه ليدهشهم كثيراً على ماأرى أن يعلموا أن فوق الأرض أمماً فى قدرتها ان تستسلم لحاكم وتلقى بنفسها فى قبضة ظالم

لاقيت فى هذه المدينة شيخاً لا أذكر اين ولا كيف لاقيته وقع التعارف بيني وبينه

فأخذ على نفسه أن يشرح لي نظام حكومتهم ويطوف بي على المعاهد المعدة للمنافع العامة لأني لم أر في المدينة قصوراً بنيت لبعض الافراد توفية لاسباب لذاته ولا مسالح ولادور لتجنيش ولا مواخير للفحش .

لما رافقني ما شاهدته قلت للشيخ هل لك ان تخبرني باسم ذلك الواضع الكبير الذي سن لكم هذه القوانين .

فتبسم ضاحكا من قولي وقال أراك آتياً من عالم آخر فاعلم أن قوانيننا ليست من وضع البشر واني أراني الآن مضطرا الى أن أقص عليك تاريخنا في كلمات قلائل فاستمع لما أقول : اننا قبل اليوم بنحو قرنين لم نكن أحسن حالا من غيرنا من الأمم وآخر ملك تولى علينا ولانذكر منه شيئاً حتى اسمه (لان النسيان أحسن عقاب للمسيئين الاشرار) خلع من عرشه بعد حكم أسخط عليه جميع رعاياه وألبهم على نبذ طاعته والخروج عليه ثم عرض الثائرون بعد خلعه صوراً مختلفة وأشكالا متنوعة للحكومة وكادوا يقتتلون على اختيار حاكم لولا ان آباءنا بما كان لهم من الحكمة والدراية قد تراجعوا وقال بعضهم لبعض ان الاولى لنا ان نرجئ الفصل فيما شجر بيننا وأن نترك لاعقابنا النظر لانفسهم فيما هو خير لهم فانه لاخير في أحسن الاوضاع ولا في أعدل القوانين ان لم نجد في اخلاق الناشئين وسيلة لاستبقائها وحينئذ اتفق القوم على أن يبقوا من قوانينهم القديمة أكثرها مطابقة لحكم العقل حيناً من الدهر وأن ينشؤا الجيل الجديد في هذه الفترة على حب الحرية والاخذ بها ثم لعلك لم تر مدرستنا انها أصل نظامنا السياسي فهيا بنا اليها .

أخذني الى مكان على مقربة من المدينة فما هو الا أن تجلى لنظري في اسقاط الشمس قصر أو هيكل فوق ربوة شجراء قد عادل اتساعه وانفساح ارجائه ماله من الفخامة والجلال لو أردت أن اصف لك جملته لعيت بذلك . بني كل قسم من أقسامه الداخلية على طريقة حديثة في فن العمارة وبلغ من الازدياد بما وضع فيه من التماثيل والصور وآثار الفنون الى حيث ان جدرانه كانت تكاد تكفي أن تكون وحدها طريقة من طرق التعليم بكون ما حوته ينقش على أذهان التلامذة ومشاعرهم وينقسم هؤلاء الى عدة أمم يمثل كل منها جيلا من أجيال الانسان وقد وقع ذلك البناء في وسط مشاهد تأسر القلب وتأخذ باللب بما فيها من ضروب التباين ووجوه التخالف فتجد حوله الآجام والصخور ومساقط الماء وتحته البحر .

وقفت على احدى حانات الدروس فاذا بنا امام عشرين أنواعاً مختلفة من الرياضات البدنية كالمسارعة والمصدو والرماية بأنواعها واكثر ما دهشت له في هذه الطائفة أن معلميها كانوا من هنود امريكا الحمر الاصليين كما تبين ذلك من لونهم وخوافة أعضائهم وما كان على شعورهم من مواد الزينة الوهمية

قال لي الدليل ان هذه القبيلة المتوحشة لم تأت الى بلادنا الا من عهد قريب وانما جذبها الى حدودها حسن اخلاق قومنا ورقة طباعهم فاننا لم نعتبرهم اعداء لنا كما يفعل غيرنا بل دعوناهم الى مشاركتنا في نعم الحضارة وأرشدناهم الى ما تحصله لنا من الفوائد وانزلنا بينهم لهم بمقدار رجحانها على البداوة ولما كنا لا نجهل مالهم من المذاهب البدائية التي نحن مغرومون منها قد عرضنا عليهم معاوضة المنافع ومبادلة المرافق فقبل فريق منهم ذلك منا وهاهم أولاء الآن يروضون أبناءنا على احتمال الآلام الجسدية لغير معتقدين من جهاتهم وعلى اصقال اظفارهم واسماعهم في اجتناب ما ينصب لهم من الحبائل وابطال اثر ما يكاد لخاتهم من الكائد ويعودونهم على البسالة في قتي اعدائهم وايثارهم موافقة سلطان الارادة وعلى تعرف اخلاق الحيوانات وعوائدها في حالتها الوحشية

وفيما نحن نجول داخل هذا المكان الذي هو منتدى كما قلت الى دارات مختلفة تربية والتعليم شهدت أحد الاعياد التي تقام في هذه الدارات التاريخية أو العلمية من حين الى حين فقال لي أثناء (تلماسة بلاد اليونان) ان لم اكن واهما ما أبصرت فانها نظير بالاقريطول شاخصة امامي على صخر ديملوها معبد وتماثيل والهة منحوتة من النحاس الاحمر والمرمر ورأيت في الجانب الغربي لهذه القلعة دهاليزها التي اقامها بريكليس (١) وكنت أشاهد طوائف من الفتيان في ازياء يونانية يتمرضون اليونان في اطوارهم واحوالهم تشخيصاً يقرب من الفطرة ويتكلمون بلغتهم ويتلونهم في تنزههم في المدينة او غدوهم الى مرافئ بيريه (٢) ومونيخي (٣) وفاليز (٤) فاستغربت ما رأيت مع قلة استغراب الحالم واقسمت بآلهة بروماخوس لاكتمنهن هذا السر.

فلما رأى ساحبي شدة ولعي بمعرفة حقيقة ما رأيته قال لي ان الامر في غاية السهولة ذلك انا لما تبين لنا بالاختبار ان التاريخ في تعليمه للاحداث يمر باذهانهم

(١) بريكليس احد رجال حكومة آتينا الاقدمين (٢ و٣ و٤) بيريه ومونيخي وفاليز كلها مدن يونانية فيها مرافئ

صور الخيال غير تارك له فيها آثاراً بينة اجتهدنا في ان نجعل له جنباً تجلد فيها صورته فترى تلامذتنا لا يقتصرون في تعلمه على معلوماتهم ما كان في العصور الخالية بل انهم يعيشون في تلك العصور .

فقلت له لابد أن تكون جمهوريتكم قد بلغت من الثروة غايتها حتى تقوم بنفقات هذه المعاهد فكان جوابه انها غنية بمهارتها في طرق الكسب ولانها هي التي تدبر نفقاتها بنفسها على اني ارجو ان لا تخدع بما تراه فان ما تظنه بذلا للمال واسرافاً فيه هو في الحقيقة تدبير له وتوفير ولو سمح ما نسمعه عن أوربا القديمة لكان ما تنفقه امتها على حكوماتها في جانب التبذير وما تنفقه على التعليم العام في طرف التقتير وأما نحن فأمورنا تجري على خلاف ذلك فحكومتنا لا تكلفنا اولا تكاد تكلفنا شيئاً وتنفق كل ارزاقنا على مصارفنا فكان لنا بالسير على هذه السنن ما يسمى في عرف التجارة صفقة رابحة ولله طريقتنا في التربية فاننا ببركتها استغنينا عن اتخاذ جيش دائم وكهنوت وغيرهما من الاثقال التي توقع الحكومات في مهواة الافلاس وتؤديها الى الخراب

هذه الامة التي ضل عنى الآن اسمها لا تقصد في تربية عقول ابنائها وتقويم طباعهم اعدادهم لان يتبعوا في مستقبلهم نظاماً مقرراً كائناً ما كان بل انها عقدت النية على أن تقلل ما يمكن من التربية الحرة المؤسسة على نواميس الكون واصول العلم من الثمرات فبغتها اقدامها على ان تمهد بمستقبل بلادها الى معارف الاجيال الجديدة وعلومهم فهي تعتبر المدرسة امة في سبيل نشأتها لها قوانينها كما أن للحكومة قوانينها وترى تلك القوانين كأنها مقدمة لهذه وتبكر بتعليم التلامذة ممارسة ما يتحلى به الرجال من الفضائل القومية .

ليس لمعلمي المدرسة على التلامذة أدنى سبيل الى التأديب ولكنهم لا يسلمون عنها بما يقترفونه من مخالفة قوانينها وعوائدها بل انهم يعاقب بعضهم بعضاً على ما يقع منهم من المخالفات فالمخالفون يحاكمون الى محكمة يتخب اعضاؤها من اخوانهم لمدة معلومة ومن مصلحة هؤلاء الاعضاء ان يعدلوا في احكامهم وان لا يطيعوا فيها دواعي الهوى والغرض لعلمهم ان الاعتداء على حقوق الناس قد يعود عليهم ضرره في الحال او في المآل ويقوم امام هذه المحكمة محاميان احدهما من جانب المدعي والثاني من جانب المدعى عليه فيبينان لها وقائع الدعوى بالرزانة والوقار ثم يصدر المحلفون المتطوعون احكامهم وهي واجبة الاحترام على الدوام وما يحكم به من الجزاء يسير على كونه غاية

[illegible]

يقيم العشايا الخصوصيات [illegible] تحت قسم الصبيان والبنات يحضرن معهم في غرف التعليم [illegible] في نهارا

قال لي الشيخ اننا نعول كثيراً في [illegible] على ما للفتاة من الاثر المعنوي في النفوس فهن اللاتي نمهد لهن بتوزيع الجوائز والمكافآت على المتفوقات نرى المهرة من هؤلاء في الرياضات البدنية يكونون أنفس العاملين في ساحتها بعض الحركات التي هي مظاهر البأس والقوة والمستعصيين منهم قد بلغوا حدالياس يمثلون من أيديهن على مقاعد الدرسة ويتعلمون من يدهن في ميدان الفضائل والبلاغة حرباً عواناً كل ذلك بسبيل ارضائهن وهن يعلمن بما كان الذكور فيهن لمهن سلطات الرأي سيدات الحكم في مواد الفنون كان معلم الذكور يتعب أنفسهم بالركون الى رأيهن في محاسن الشعر والنثر وتصويره فاذا صدر حكمهن في الدور باتقان حسان الاعمال وهن مستفرغ وسعهن في التشريح والتظهير كذلك يمتاد أحدانا على أن [illegible] وجدانهم لحسن أعمالهم في [illegible] من ذلك استحسان هذه الاعمال بتلقيها بالاستبشار والبشاشة ويأمل من يعلمون ان يكونوا [illegible] ما يمثل لهم فيها الفروض التي كتب عليهم ادائها

لايزال صدى الكلمات الاخيرة التي سمعتها من ذلك الشيخ يرن في أذني اذ قال لي في نهاية حديثه لوطال زمن مكثك بيننا لشاهدت من مستحدثاتنا مثلا أشك في أنه كان يمر في [illegible] ولعلك [illegible] ما كان يربعنا بعضنا من قيود الفن والتقاليد التي كانت كالثلج جمودا وبرودة ونفياً لحرارة الحياة وأن تعرف أن الامم الحرة انما تنشأ رجالها الاحرار وأن آباءنا لم يخلقوا في أن يلتمسوا في وجدان كل انسان أقوى ناصر على الاستبداد لاعتقادهم أن أحسن الحكومات أقلها وجوداً فزاهم قد فضلوا أن يقفوا في نفوس الاحداث وجدان العدل والحق الذي لاتغيره الحوادث ولا تمحوه الكوارث على أن يدونوا لهم قانوناً نظاميا في كتاب ربما أن رياح الفتن وعواصف الثورات الداخلية كانت مزقته من زمن بعيد وجملة القول أن الحكومة عندنا ليست هي التي تدير المدرسة بل ان المدرسة هي التي توجدها وتشئها. اه